

وديع الصافي: « صلّحت » للشعراء الذين غنيت كلماتهم  
بيروت - لوريس الرشعيني



صدح الزمان أصالة وهناء.. من مارد الفن ومالك اللواء، ما كان للأمم أن تحيا بلا.. صدى جبالها ما قبل البناء،  
ونقاء نبع يداعب الخضرة وندى.. يعكس في طيه العذب صفاء، صاف متصوف بالصفاء التحي.. وكان الصفاء  
يعكسه صفاء.

لن توفي الكلمات كنز العرب النفيس العملاق وديع الصافي، الذي كلما التقيناه خرجنا بجعبة غنية من دروس  
التواضع والقيم التي لطالما جسدها وحرص على تعليمها، هو من عايش الزمان وعانقه شموخاً وقوة، فقد صادقه  
منذ الانتداب الفرنسي وحتى اليوم، فأشرف على مراحل التطور والتدهور بأشكاله وألوانه، وكاتف كبار الملوك  
والأمراء والرؤساء وطبقات الساسة، وسافر السفراء وجاور الشرفاء، وأبدع والمبدعين، فاطرب المستمعين، وما

أغناه سوى كنزه الثمين حب الوطن، فكان له الدين، بكاه في الأزمات فأبكى، وضحك مسراته فأسرّ، ولم يبخل فيه من رصيد أغان لا يعد ولا يحصى: «بلدي، خضرا يا بلادي، سيّجنا لبنان، لبنان يا قطعة سما، يا أرز يا صامد بأعلى جبالنا»... وغيرها كثير.

هو ابن نوحا في قضاء الشوف، فجبال لبنان تغني الجمال وتحيي العطاء، ودفء العيش وأواصر المحبة المنشودة المعهودة في القرى لطالما ذللت الفقر والصعاب التي اكتنفت حياة الصافي، وهو ابن بيت كثير العيال قليل الإعالة، أهابته بيروت وهو طفل فهابته صوامع مجدها مبدعا خلّقا.

وما كان له «أوان» إلا أن تقل الكلام لتسمع الدرر من فم بحرهما:

} ما دور «نوحا» في مسيرة العملاق الفنية؟

- ولدت وترعرعت في قرية نوحا في جبل لبنان، وكان لها أثر وفضل على طفولتي، حيث عشت في جو عائلي بين الجدين والأعمام والأخوال، ومحيط محب يكتنفه الكرم والأخلاق والضيافة، فمازالت قرانا تحافظ على العادات الأصيلة.

} ماذا تخبرنا من ذكريات الطفولة؟

- لقد كنت أقلد الديك في صياحه وأنا ابن سنتين، فتنبه لصوتي الخال نمر الذي كان له فضل كبير عليّ، وبعمر أربع سنوات غنيت في عرس أنيس العجيل وهو من أقرباننا، أذكر بأنني جلست على «الكنبانية» وقدماي لا تطاولان الأرض، وأنا أدق الدبكة وأغني «رندحات» ومواويل كانت تغنى في الأعراس قديماً، وهكذا بدأت الغناء صغيراً جداً في أعراس الأقرباء، وبعد سنوات صرت أشمّس، أي أرتل في شماس كنيسة، فتمرّن صوتي منذ الصغر، زد على ذلك أن جديّ لأمي وأبي يملكان أصواتاً عظيمة، وكذلك والداي وأعمامي والأخوال، فجنّت أنا بإرادة الرب مضاهياً للجميع، حيث أخذت منهم جميعاً. وبعد ذلك تركنا القرية إلى بيروت، وكنت حينها مراهقاً ابن 14 أو 15 سنة، وصرت أغني بين الأصحاب والأصدقاء، وذات يوم أخبرني أخي الأكبر توفيق بأن هناك مسابقة للأصوات في الإذاعة اللبنانية، وطلب أن أتقدم إليها، فقلت له «لا ما بدي، هودي ولاد بيروت، بيضحكوا علينا»، فأجابني: «أنت ستغلبهم جميعاً اذهب وسترى»، وهكذا تقدمت للمسابقة وأحرزت المرتبة الأولى من بين 42 متسابقاً بأغنية كانت لي لحناً وعزفاً وغناءً، لقد كنت سابقاً زمني ومكاني، فأنا خلاصة سلالة أصوات حلوة، وبعمر 4 سنوات كنت أحيي عرس بالعتابا والميجانا.

} وماذا عن علاقتك بالوالدين؟

- كانت علاقتي بوالدتي حميمة جداً، أما والدي فكان خيلاً، رجلاً عسكرياً صارماً، لم يكن يدللني كثيراً، ولم يكن يعرف كيف يصادقنا، وكان مشغولاً جداً، فلعبت أُمي الدور الأكبر في حياتنا.

الفنان والشاعر والملحن

{ ما دور وأثر إذاعة الشرق الأدنى في الفن اللبناني عموماً ومشوارك الفني خصوصاً؟

- هي استفادت منا، ولسنا نحن المستفيدين فقط، ولكنها كانت السبابة في ظل ظروف إذاعتنا المحلية، وكانت الأوسع انتشاراً، فهي ربحت منا ولم تخسر.

{ كيف تصف لنا علاقة الفنان سابقاً بالشاعر والملحن وعلاقته اليوم بهما، وبفنه أيضاً؟

- لم يتغير شيء بهذا الخصوص، فالشعراء هم توأم حياتنا، ربما لكل وقت حكمه، ولكن هناك دائماً علاقة مميزة بين الفنان والشاعر، وأنا صعب جداً ولا أتعامل إلا مع الشاعر المتميز، فأنا شاعر وصلحت لكل الشعراء الذين غنيت كلماتهم، كما تجمعني علاقة صداقة وصحبة وود مع عدة شعراء كبار، منهم: أسعد سابا، أسعد السبيلي، عبدالجليل وهبي، مارون كرم.

{ ماذا عن ذكريات شلة الفن وليالي الطرب؟

- كنا نجتمع مع الشعراء أمثال المرحوم سليم فرزان مركزل، الذي قدم لي أعمالاً مهمة جداً، فنجتمع في مكان أدب وشعر وطرب، وتلك الأجواء الجميلة.

{ ماذا عن الوسط الفني قديماً، وكيف تراه اليوم؟

- الفرق شاسع جداً، فالיום «الطاسة ضايعة»، ولكن كل هذا آني وإلى زوال.

{ هل أخذت حقاك الفني في تعاملك مع الرحابنة؟ وكيف كانت علاقتكم؟ - الرحابنة لم ينقصوا مني أو يزيدوا عليّ، فقد عملت معهم وأنا وديع الصافي، وكانوا هم الرحابنة أيضاً. وكانت علاقتنا مهنية، قد تكون صحبة، ولكنها ليست صداقة. ولماذا لم تكرّس الثانية بينك وبين السيدة فيروز، كما جسدت مع الصبوحه؟

- هذا يعود للراحبة وما يريدون أو يرتون، إلا أنني عملت مع فيروز وكذلك مع صباح، فأنا بساط كبير، بساط الريح (ضاحكاً) أتسع لكل المواهب، فمن أراد التعاون معي غناءً أقبل بالعمل معه شرط أن يمتلك المؤهلات.

{ لقد رفضت خوض المهرجانات إلى أن طلب منك الرئيس كميل شمعون ذلك، ألا تعتقد بأن مردودها الفني كان مهماً؟

- جمعتني بالرئيس شمعون علاقة حميمة، علاقة صداقة، وبالنسبة للمهرجانات فقد أعطينا بعضنا، فأنا أضفت عليها، والراحبة أعطوا كثيراً، وكنت بطلا في أعمالهم، يعني لم أنقص من قيمتها، على العكس، و«حلو التواضع».

{ وما رأيك بمسيرة الجيل الجديد من الراحبة؟

- هم نشيطون جداً، ليس بالضرورة أن تكون أعمالهم كتلك التي نفذت زمن الآباء، ولكن هناك نشاطات وأعمال جيدة، وهم على قدر المسؤولية واستطاعوا إثبات وجودهم «يعطيهم العافية».

{ من كان الأقرب إلى خط المنافسة مع وديع الصافي، في تلك الحقبة؟

- لا يوجد أحد، هم يحتاجون إلى مسافات وكيلومترات مديدة.

{ وماذا عن علاقتك بنصري شمس الدين؟

- أنا لا أقارن نفسي بأحد، ولا أحب أن يقارنني أحد بغيري، فأنا مفرد، وقد عشنا مع بعضنا زملاء، نعمل كعائلة واحدة، وأنا متواضع أعمل مع الأقل مني وال... وكانت تربطني بنصري صداقة عمل، وكذلك مع فيلمون وهبي وغيره، فمن له مصلحة معي كنت أعطيه ومن لي مصلحة معه آخذ منه.

ابن مصر المدلل

{ لماذا كان عمالقة الفن من لبنانيين وعرب يهابون وديع الصافي، ولهم كلمات في ذلك، كالموسيقار عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وأم كلثوم؟

- كانوا يهابون قدرة صوتي، «الله أكبر»، كما كان يقول لي الشعب المصري الطيب، فأنا ابن سلالة أصوات. وكانت لقاءاتي مع عبدالوهاب حميمة جداً، وكنا نتبادل التقدير والاحترام، وقد استفدت منه كما استفاد الجميع، فهو سباق وسابق لعصره بكثير، ولقد كنت رمزه الأول الذي يهتدي به.

} كنت الابن المدلل لمصر؟

- «دللوني كثير» ومنحوني الجنسية بسرعة، وكذلك وسام تقدير، الشعب المصري طيب وعظيم.

} وعلاقتك مع أم كلثوم؟

- كانت علاقة طيبة وحميمة، لقد أعطيتها لحناً، وكان من المقرر أن تغنيه في بعلبك، إلا أن المنية عاجلتها قبل أن تغنيه، ويقول:

«أنا فيما أنا فيه وعذولي يتعتب.. أنا لا أصغي لما قال فيرضى أو فيغضب»، ولم أعطه لأحد بعدها، ولكنني أردده في بعض الجلسات والصالونات.

} من كان له من العمالقة وقع خاص لديك؟

- لكل مكانته، وعبدالوهاب أقام في منزله حفلات عدة على شرفي، حيث كان يجمع العباقرة والملحنين، كالسنباطي، ويقول لهم: «شوفوا ربنا عامل إيه»، وكنت أحمل العود وأغني وإلى جانبي عبدالحليم ورياض السنباطي ولىلى مراد وفاتن حمامة وغيرهم من كبار الفن، وكان السنباطي يصرخ بين الحين والحين «يا عظمة». وأنا لحنّت النشيد القومي لمصر الذي كتبه الشاعر المصري الكبير أحمد علام، ويقول: «عظمة يا مصر يا أرض النعم، يا مهد الكرامة (وينسى مدندناً) نيلك ده سكر، جوك معطر، بدرك منور بين الأمم، عظمة يا مصر يا أرض النعم».

فن وندم وإحباط

} شاركت في السينما المصرية ولم تُكرّس كنجم سينمائي، لماذا برأيك؟

- أنا لا أحب السينما، ولا أملك الصبر والأعصاب لتحمل ضغط الأفلام والتصوير.

} أهم وأقرب المحطات إلى قلبك شخصياً؟

- المحطات التي أكون فيها مسافراً، وأعود إلى لبنان، فعندما كنت أرى الجبال والبحر والجمال الإلهي من الأعلى، أبكي كثيراً، فأنا مريض بحب هذا الوطن.

} وماذا عن أهم المحطات الفنية؟

- هي مراحل عدة، مناسبات عديدة، ومفاجآت كثيرة، وتاريخ حافل بالجهاد والأجداد والصدق والأمانة تجاه الوطن والفن والأخلاق، ف «إنما الأمم الأخلاق ما بقيت...فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا»، فالفن بلا أخلاق ليس بفن، وأي عمل يجب أن تكتتفه الأخلاق حتى ينجح وخصوصاً الفن.

} ألا توجد محطات ندم، أو إحباط عشتها في فنك أو في حياتك الخاصة؟

- كانت تحصل أمور أندم عليها، وأقول: «ما كان علي فعلها»، إلا أنها زاد أتعلم منه ويجنبني الخطأ فيما بعد، فقد تعلمت من التجارب ولم يعلمني أحد، وعلمتني الحياة الكفاح والصبر، فأنا رجل صبور ومؤمن بالعزة الإلهية والأنبياء والقديسين، وكل إنسان ذي مبادئ وعلى خلق أو من به وأصادقه. وما كان يحز في قلبي هو جرح الوطن، واضطرارنا للهرب والهجرة من جراء «الرزالات» والطمع وقلة الوطنية، لقد هربت وأسرتي إلى فرنسا، فما ذنبنا لتحمل الغربة، هذا الوطن يلزمه حب، يلزمه تفان، وليس «بياعين» يبيعونه في كل ساعة، وأقول:

أرضك عرضك.. وطنك شرفك

يا بياعين الأوطان بعثوا وحرقتوا لبنان

يا أخوات الهيك والهيك

جاييكن بكرة الديان

بكرة الديان جاييكن..

من غضباتو يعميكن..

مين بده يشفع فيكن..

هو الشافع والديان..

يا بياعين الأوطان..

هذه «زودة» جيدة، (يقول) ضاحكاً).

} الالتزام بقضايا الوطن وحبه والتفاني لأجله، إلى أي درجة قد يخدم الفنان؟

- حب لبنان خدمني كثيراً، فوطني جميل، من أجمل الأوطان، «لمين بدي بيعه؟ للغريب؟»، لقد قدمت للبنان روعي وعمرى وحياتي، وذهبت إلى أقاصي الدنيا كي أعزز اسم بلدي.

} وفي المقابل، ماذا أعطاك لبنان؟

- أعطاني المواطنة، وهي تكفيني، فأنا لا أطلب أجراً من والدي لأنه خلّفني، على العكس يجب أن أوفيه أجره، وكذلك لبنان له عليّ دين، ولو لم يقدم لي شيئاً، هذا وطني، أرضك عرضك، وطنك شرفك، يا بياعين الأوطان.. و(يكرر).

} إذاً، هل أخذت حقك في بلدك؟

- الشعب يحبني كثيراً، ويعطيني على قدر استطاعته، أما المسؤولون، فيمنحونني الأوسمة، ولدي منها مقدار ما تشائين.

} وما مردود غربتك عن الوطن على إبداعك؟

- كان مردودها كبيراً جداً، بكاء مريراً وشوقاً وحنيناً، فأنا متعلق بلبنان كثيراً، وهذا زودني فنياً لألحن «مزامير» التي لا يستطيع أحد أن يلحنها، فحتى اليوم لم يجرؤ أحد على تلحين المزامير كما لحنتها أنا لتراب الوطن.

المخلص.. يتعب

} حجم التضحية التي استنفذها الفن من حياتك وحياة عائلتك؟

- الفنان المخلص دائماً يتعب، وإنما أجره في السماء والأرض عظيم، ضحيت كثيراً وعائلتي ضحت معي حتى وصلت إلى ما أنا عليه من مركز وسمعة باستقامتي وبمبادئي وبإيماني، وكان دور زوجتي صعباً جداً، ولكنها تثق بي، وأنا مُرغم لا بطل.. فهذه مهنتي.. أجوب العالم لأغذي الناس من فنوني وعطاءاتي «شو بقعد وبغني بالبيت» (مازحاً)، واليوم ولداي أنطوان وجورج أصبحا عملاقين من بعدي والحمد لله.

} ومن تعتقد بأنه سيحمل الراية، بعد عمر طويل؟

- أنطوان وجورج ملحنان كبيران، وأخلاقهما عظيمة، يُبَيِّضَان وجهي، ويرفعان رأسي.

} ومن تسمي من الجيل الجديد في الوسط الفني؟

- أنا لا أسمى أحداً.. لا جواب. ولكن نجوى كرم كان صنيعها مشرفاً معي، حيث وقفت إلى جانبي في المستشفى في العام المنصرم، وتبرعت لي بالدم مرتين، «المسكينة، عسلاتها»، أنا أقدرها كثيراً، وأقول لها «شكراً نجوى، الله يقويكي ويوفقك».. وتحياتي لها.

} تحرص دائماً على دعم الشباب، ولا تحرمهم من نيل شرف الغناء معك ودعم فرصهم، فما أهمية التواضع عند الفنان خصوصاً؟

- ما دام الشباب أصحاب مواهب حقيقية أقف إلى جانبهم وأساعدهم، أما إذا كانوا يدعون الموهبة فأكيد لن أدمهم. والتواضع هو أهم شيء في الحياة، وهو يثبت النجاح، وأنا أحب الثبات في القيم والدين والإنسانية، وأحب السلام، وما تغيرت يوماً، والأهم أنني لست مادياً ولا أريد المادة سوى للحفاظ على كرامتي «وكي لا أعوز»، وليس كي أحافظ على المال.

} تجاوزت يوبيلك الذهبي وواكبت متحولات ومتغيرات جذرية، فمتى بدأ الفن بالتكويح عن مساره المشرق المشرف، في إبداع الخمسينيات والسبعينيات؟

- منذ أن انتهت مهرجانات بعلبك بعزها القديم، فمع نهاية تلك الثورة الفنية العظيمة تراجع الفن كثيراً، فلم تعد هناك مبادئ وقيم فنية، وصار الفن خلاعة وهزاً وعرض أزياء، وما أدراك، فهذه الأمور نحن بعيدون عنها ويبقى الأصل أصلاً. إلا أنني أتفاعل ببعض المواهب، وسأصرح أولاً بولدي أنطوان وجورج وهناك آخرون، وأنا لا أقول ذلك لأدعم ولادي، إطلاقاً، فالمعروف عني أنه إذا كان ابني على خطأ أقول له توقف، لكن ولدي مؤهلان وموهوبان بالتلحين والكلام والأداء والغناء، وأنا أثق بهما لأنني ربيتهما، وهما سيأخذان مكاني، وهناك مواهب واعدة عليهم أن يستعملوا القيم بالفن واللحن والكلمة، أي أن يكون اللحن صحيحاً وقوياً، والكلمة واثقة وفيها أخلاق، وليس كل من صوته جميل يغني ويصبح فناناً، لا أبداً، فالفن أخلاق أولاً.

} تُفاجئنا دائماً بظهور فني رائع، فهل كشفت لنا بعض مشاريعك الفنية القادمة؟

- دائماً أحمل الجديد، على الرغم من أن الناس يطلبون سماع القديم، «فاغنييه وكأني شاب ابن ثلاثين» (ضاحكاً)، وقريباً سأسافر مع «جانحي» أنطوان وجورج، حيث سنحيي حفلة مع (المطربة) هبة قواس في أبو ظبي، وسأكون ضيف شرف، وسأغني مع هبة، أما النجمان الأساسيان فهما ابني أنطوان وهبة قواس، وهناك مجموعة جولات مع هبة في البلاد العربية وأوروبا، وغيرها.



الفنان الكبير وديع الصافي قابل عدد من الملوك والأمراء والرؤساء والزعماء، وأهم الشخصيات، وعمن ترك أثراً وانطباعاً في نفسه يقول: هم كثر جداً، وكرموني واحتفوا بي كثيراً، كل البلاد العربية في الخليج وبلاد الشام ومصر وغيرها من البلدان، وأكثر من كرمني هو الشعب السوري، لطالما كرموني وما يزالون حتى اليوم، «الله يكرمهم»، وأغنية «اللوما» انطلقت من سورية، وكسرت الدنيا، وهي أغنية كنت قد غنيتها في الإذاعة اللبنانية، إلا أن حليم الرومي رفض إذاعتها، وقال لي: «هذا ليس لونا»، وطمرها في الدرج منسية، فذهبت وسجلتها في سورية، وأقامت القيامة لما حققته من نجاح، فسألني الرومي: «أين أغنية اللوما؟»، فقلت له عندك منذ ستة أشهر نسيته في الدرج. ولا أنسى الشعب المصري حيث كرمت ومنحت الجنسية، بالنتيجة أنا تعبت كثيراً، وأعطيت، وما حصده ليس مالاً بل هو عز وكرامة وقيمة، وهذا الأهم.

ويضيف: أما عن المسؤولين فلا يمكنني التخصيص وذكر أسماء، فكلهم أصحابي ويكونون لي التقدير والاحترام، وأنا أجلهم، ولكن حتى اليوم لم ينجز أي إجراء رسمي يضمن آخرة الفنان، لم يعوا بعد قيمة الإبداع الفردي للمواطنين، فيجب أن يتحملوا المسؤولية حيال كل مبدع، جبران خليل جبران لم يصبح جبران في بلده بل في أميركا، والناطقة يجب أن ينبغ في وطنه أولاً، وأن يكرم فيه قبل غيره من بلدان العالم. والمسؤولون لم يقصروا معي، ولكن بعدما اشتهرت، وكنت قد تعذبت كثيراً حتى وصلت، فقد كانت هناك حرب فنية ضدي، وفي لبنان مقبرة الأنبياء، ومع ذلك فشرف لي أن أصمد وأبقى في وطني ولم أرتض غيره بلداً، وما استبدلته، على الرغم من تكريمي في بلدان العالم ومنحي الجنسيات، فحيث ولدت يجب أن أموت.

تاريخ النشر : 17-03-2010